لماذا . . . « الطوفان » ؟ ؟

كثيراً ما واجهت مشكلة اختيار عناوين القصص التى أكتبها ، وهى على أى حال مشكلة تقليدية يواجهها كل أديب وكاتب .

لكننى لم أتصور أن اختيار عنوان لكتاب عسكرى سياسى سيمثل بالنسبة لى مشكلة أكبر ! وبخاصة أن كتابى الأول عن حرب أكتوبر لم يحمل معه هذه المشكلة إذ فرض شكله ومضمونه العنوان الذى اخترته له بغير ما جهد وهو « يوميات مذيع فى جبهة القتال » .

أما هذا الكتاب فقد كانت حكاية عنوانه – معى – حكاية ! ! . لقد أجهدت نفسى فى البحث عن « الصفة » التى تلخص محصلة ما دار فى جبهات القتال العربية الإسرائيلية منذ أشارت عقارب الزمن التاريخى إلى الدقيقة الخامسة بعد الثانية من ظهر يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣ . . وقد ضاعف من حجم المشكلة أننى لم أكن بصدد « ابتكار » عنوان بقدر ماكنت مصمماً على « التقاط » عنوان من عشرات ومئات « الصفات » التى ترددت فى التعليقات والدراسات التى صدرت عن هذه الحرب . والأكثر من ذلك أننى – التزاماً بالموضوعية الكاملة التى اخترتها منهجاً لا أحيد عنه فى كتابتى – قررت أن تكون « الصفة » المنشودة صادرة عن شخصية غير عربية تفادياً لأى شبهة تحيز أو مبالغة . بل إننى فضلت أن تكون صادرة عن شخصية إسرائيلية .

١ – هل أختار كلمة « الزلزال » التى رددها واحد من أخطر المعلقين الإسرائيليين وهو (زئيف شيف) فى أكثر من مقال له (كمقاله فى صحيفة هآرتس الصادرة فى ١٩٧٥/٨/١) والتى يتساءل فيها : « هل تعود القيادة الإسرائيلية العسكرية إلى أسلوبها الذى كانت تتبعه قبل أن يفاجئها « الزلزال » فى أكتوبر ٧٣ ؟ » . . لقد ردد الرجل الكلمة أكثر من مرة ، بل إنه اختارها عنواناً لكتابه الذى انتهت إحدى مطابع إسرائيل من طباعته منذ شهور قليلة . . ثم إن عدداً غير قليل من المعلقين الإسرائيليين استخدموا الكلمة نفسها « زلزال » فى وصف ما جرى – بالنسبة لجيشهم ودولتهم – فى حرب أكتوبر . بل إن كاتباً فرنسياً معروفاً هو « أريك رولو » جعلها عنواناً لسلسلة مقالاته وتحقيقاته التى نشرها فى صحيفة « لوموند » حول (ما أحدثته حرب أكتوبر من زلزال عسكرى وسياسى واقتصادى

واجتماعى ونفسى فى إسرائيل) .

٢ – أم أختار كلمة « **الكارثة** » التى كان أول من نطق بها صقر المؤسسة العسكرية الإسرائيلية وإله حربهم السابق الجنرال موشيه ديان ، حين وقف منهاراً أمام رئيسة وزرائهم جولدا مائير وقال لها بحروف مرتبكة متآكلة : « إننا نواجه كارثة كبرى . . لقد أخطأت . . لقد أخطأت يا جولدا ! » .

والمثير أن السيدة جولدا مائير نفسها رددت الكلمة ذاتها « الكارثة » بعد ذلك حين سمعها الإسرائيليون تقول لهم فى إذاعتهم العبرية إن حرب أكتوبر . . كانت كارثة بالنسبة لنـــا . »

بل إن الكلمة فرضت نفسها على الآخرين . . ومنهم جورج إليزلى رئيس المنظمة اليهودية فى استراسبورج . الذى قال « لقد أسفرت حرب أكتوبر عن « كارثة » بالنسبة لإسرائيل » . كما أن الجنرال حايم بارليف وجه نداء قال فيه (أيتها الأمهات الثكالى . . إنها « كارثة » حلت بنا . ولكن يعزينا أنكن مواطنات صالحات قدمتن فلذات الأكباد لمعركة بقائنا . . بقاء إسرائيل) .

٣ – ولكن . . هذا عنوان آخر يحاول إغراء قلمى ، « **نهاية العالم** » ولعل ما يضيف إلى قوة إغرائه أنه صدر عن مجموعات من الجنود الإسرائيليين الذين وصفوهم بأنهم « لا يقهرون . . وعلى كل شىء قادرون . . » لقد قال هؤلاء الجنود فى تصويرهم لما حدث لهم فى حرب أكتوبر « أنهم تصوروا ما يجرى وكأنه « نهاية العالم » بالنسبة لهم .

وقد سجل ذلك بقلمه الكاتب الشهير « جان كلود جيبوه » فى كتابه « الأيام المؤلمة فى إسرائيل » .

٤ – أم ترانى أختار كلمة « **الصاعقة** » التى رددها بعض الكتاب والضباط الإسرائيليين – وكان آخرهم موشيه دور فى مقاله بصحيفة معاريف والذى قال فيه « إن الحرب نزلت على إسرائيل كصاعقة البرق . . فصعقت كل شىء ! ! » .

٥ – ويطل على عنوان آخر له مدلوله الخطير : « **عصر ما بعد الصهيونية** » وقد جاءت هذه الكلمات على لسان الأستاذ الإسرائيلى « إلعازار » « المحاضر بجامعة بار – إيلان والأستاذ فى جامعة تمبل فى بنسلفانيا » فقال فى إحدى دراساته : « إن حرب أكتوبر قد أثبتت خطأ الحلم الصهيونى بأن دولة إسرائيل ستؤدى إلى تمتع الشعب اليهودى بالحياة السوية . لقد ثبت أنه حلم خاطئ من أساسه . وأصبح من المحتمل أن حرب أكتوبر قد

نقلت اليهود إلى « عصر ما بعد الصهيونية » .

٦ – أخيراً . . وليس آخراً . . ها هو ذا عنوان يحمل إيقاع حروفه معنى تدفق الأحداث وردود الفعل الضخمة التى بدأت مع السادس من أكتوبر من عام ١٩٧٣ . ثم إن صاحبه هو المتحدث العسكرى الإسرائيلى ومدير مخابراتهم السابق ، ومندوب إسرائيل فى الأمم المتحدة ، ثم إنه أكبر معلقيهم العسكريين .

والأهم من ذلك أنه ارتبط بحرب أكتوبر لأن كتاباته وتعليقاته كانت تحظى باهتمام وتقدير خاصين ، إلى أن اهتزت صورته هو الآخر حين أوقعته نتائج المعارك فى تناقضات مخجلة كادت تقضى على سمعته الكبيرة . إنه الجنرال حايم هيرتسوج . والكلمة التى صدرت عنه ورشحت نفسها عنواناً لكتابى هذا هى « الطوفان » . وقد وردت فى مقال له بصحيفة هآرتس عدد ١٣/١١/١٩٧٣ . . حين قال « إننا نعيش بعد الطوفان . ولا خيار لنا إلا أن نكيف أنفسنا مع الواقع الجديد الصعب وغير المريح . واقع ضاعت معه كل الإنجازات التى جمعناها طوال أعوام وخصوصاً بعد حرب الأيام الستة فى ١٩٦٧ .

لقد أصيبت إسرائيل بضربة قوية ، وتحطمت مسلمات ، وتزعزعت أسس كانت حتى وقت قريب جداً بمثابة البديهيات ! ! « . . . وإذا كان السيد حايم هيرتسوج – بكل رصيده الفكرى والعسكرى والسياسى قد اعترف بأن حرب أكتوبر كانت « طوفاناً » فإننا يجب أن نتوقف – باهتمام – أمام هذه الكلمة خاصة وأن وزير الخارجية الإسرائيلى – وقتها – أبا إيبان – قد ردد المعنى نفسه حين قال فى ١١/١١/٧٣ : « إن إسرائيل واجهت فى حرب أكتوبر تهديداً حقيقياً وخطيراً . حتى إن الأمر تطلب قراراً على أعلى مستوى فى الولايات المتحدة الأمريكية لكى لا تتعرض إسرائيل « للغرق » .

. . . كذلك فقد ورد الوصف نفسه على لسان مؤلفى كتاب « المحدال » الإسرائيليين حين قالوا بالحرف الواحد . « كانت الدبابات الإسرائيلية تحاول القيام بمهمة كبح « الطوفان المصرى » !

* * *

. . . هكذا تكاثرت أمامى « العناوين » التى كان على أن أختار واحداً منها ، وهى جميعها – كما هو واضح – تغرى بالاختيار ، لأنها تعبير حى عما أحدثته حرب أكتوبر فى إسرائيل .

لكننى انحزت تماماً لكلمة « الطوفان » عنواناً لهذا الكتاب ربما لحجم ومكانة من

أطلقها سواء كان الجنرال حايم هيرتسوج برغم حرصه ودهائه . أو آبا إيبان برغم دقته الديبلوماسية فى اختيار الكلمات التى ينطقها . أو مؤلفى كتاب المحدال الإسرائيليين السبعة الذين قرنوا هذه الصفة « الطوفانية » بقصص ووقائع من قلب ميادين القتال . وربما لأنه – وقد مر أكثر من ثلاثة أعوام على اندلاع الحرب – تتوالى ردود الفعل والتقلصات المتعسرة فى إسرائيل – مما يجعل هذه الكلمة « الطوفان » خير تعبير عما تعرضت له جيشاً واقتصاداً بل وكياناً . . منذ تدفقت أولى موجات العبور المصرى والاقتحام السورى فى الساعة ١٤٠٥ من ظهر السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

* ترى ألم يكن اختيار العنوان مشكلة حقيقية كما اتضح من سرد بعض العناوين التى تزاحمت أمامى ؟
* ثم . . ألم يكن « الطوفان » هو العنوان الأنسب والأقوى تعبيراً ومضموناً ؟ .
* أرجو أن أكون قد وفقت فى الاختيار . . مع رجائى بأن أوفق إلى عرض ملامح هذا الطوفان . . وأبرز ما دار معه وفيه وبعده !

حمدى الكنيسى